مزاجان

قدّمنا فى الفصل السابق أن شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر يبدو أنه أفحل وأجزل، وأنه أبلغ فى الصناعة وأجمل. ثم قلنا إن هذا فيما يبدو لنا «التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمحيص».

ومن الحسن أن نعرض ببعض الوصف والتمييز لمزاج الشاعر الذى تتعلق به هذه الفحولة الفنية. فجملة ما يقال فيه – بسياق هذه المقابلة – أنه كان يحتاج إلى البأس والسيف فى معيشته وعشقه، فهو بدوى يعيش مع آله فى طريق تحميها الدولة وتكل حمايتها أحيانًا إلى سكانها من أهل البادية، لأنها تتوسط بين الحجاز ومصر والشام. فمن واجبه – إن لم يكن من طبعه – أن يحمل السيف، ويعتز بالمنعة وصيانة الحوزة.

وهو إلى هذا عاشق مشغوف بامرأة واحدة لا تغنيه عنها امرأة غيرها، فلابد له منها وإن حيل بينه وبينها ولا غنى له عن المجازفة والتقحم بالقوة فى سبيلها.

ولم نسمع من أخبار عمر بن أبى ربيعة أنه احتاج إلى القوة مرة واحدة، بل علمنا من أخباره أكثر من مرة أنه تعرض لبعض الحسان وألحف عليهن بالتوسل والمطاردة، فرددنه حتى أعيتهن الحيلة معه، ثم ظهرن مع رجل من أوليائهن يتقلد السيف فتجاهلهن عمر، ومضى فى طريقه، وقنع من الغنيمة بالذهاب. ثم تمثل المتمثلون:

تعدو الذئاب على من لا كلاب لـه
وتتقى مربض المستأسد الضارى

ولا جرم يكون هذا شأن عمر وشأن حبه، فقد كان من أهل حاضرة يعيش فيها الرجل حياته كلها ولا تلجئه ضرورة يومًا إلى تقلد سلاح، وهو فى معظم ما يرتاده من صويحباته طالب جلسة ومحادثة إن تيسرت فهى فكاهة ساعة ثم تنقضى إلى نسيان أو تسجلها قصيدة أو قصيدتان، وإن تعسرت فلا موضع للسيف فى هذا الميدان، وغير هذه الحسناء كثيرات بين الحسان.

أما جميل فكان السيف فخره وفخر آله من قبيلة أبيه أو قبيلة أمه، ولم يفخر قط إلا تغنى بالمنعة وحماية الحرم والنساء. فمن قوله فى هذا المعنى:

نحن منعنا يـــــوم أوْل نساءنـــــا
ويوم أفيّ، والأسنـــة ترعـــف[1]
ويوم ركايا[2] ذى الجذاة ووقعـــة
ببتيان كانت بعض ما قد تسلّفـوا[3]
يحب الغوانى البيض ظل لوائنـــا
إذا ما أتانا الصـــارخ المتلهـــف

ومن قوله فى أخواله جذام:

جُـذام سيوف الله فى كـل موطـــن
إذا أزمت يـــوم اللـــقاء أزام[4]
هموا منعوا ما بين مصر فذى القرى
إلى الشام من حـل بـــه حـــرام

وتواتـرت الأنباء فى قصة عشـقه باقتحامـه وقلة مبالاته بأهل عشـيقته المترصدين لقتله. وقيـل فيما قيل من ذلك إنه اسـتدعاها يومًا وعلم أهلها فتجمعـوا لمفاجأته، ثم جاءه من

(١) تقطر دما.
(٢) جمع ركية وهى البئر.
(٣) ذو الجذاة وبتيان: موضعان
(٤) أزام: أى شدة.

ينذره وينبئه بنبأ القوم فاستكبر الهرب، وقال لمنذريه: «والله ما أرهبهم، وإن فى كنانتى ثلاثين سهمًا والله لا أخطأ كل سهم منها رجلا منهم. وهذا سيفى والله ما أنا به رعِشُ اليد ولا جبان الجنان».

وذكر الهيثم بن عدى فيما رواه صاحب الأغانى: «أن جميلا طال مقامه بالشام ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحى تذكر شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة فى لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدثها طويلا وأخبرها خبره بعدها. وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما، فوثب جميل فانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب، وناشدته بثينة الله إلا انصرف، وقالت له: إن أقمت فضحتنى، ولعل الحى أن يلحقوك. فأبى وقال: أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا ما أحبوا. فلم تزل تناشده حتى انصرف».

وغير هاتين القصتين كثير يردد ما فيهما من المغامرة والتحدى وقلة المبالاة. وقد تصح هذه القصص جميعًا أو يصح بعضها دون سائرها أو لا تكون فيها قصة واحدة صحيحة. ولكنّ الحقيقة التى قصدنا إلى بيانها تبقى بعد ذلك قائمة فى

مكانها، وهى أن حبّ جميل يتطلب مزاجًا فيه الجد والفحولة ولو كان «دور تمثيل» على مسرح من مسارح الفنون، فلو أننا تركنا الواقع جانبًا وتخيلنا أن جميلًا وعمر ممثلان فى رواية مسرحية، يمثلان ما رُوى لنا من أخبارهما لما استطعنا أن نخرج جميلا إلى المسرح بغير سيفه ولا وجدنا من حاجة إلى السيف فى دور عمر وصويحباته.

فالمزاج هنا حقيقة فنية وإن لم يكن بالحقيقة الطبيعية، ولا يبعد أن يكون جميل شجاعًا مقتحمًا كما جاء فى بعض أنبائه. إلا أنه على ما نعتقد كان مستطيعًا أن «يمثل دوره» فى مسرح الحياة بغير حاجة إلى شجاعة أكثر من الشجاعة الظاهرة التى يتلبس بها الممثل أو تتلبس هى به إلى حين.

فقد كان يقتحم ويعلم أنه آمن، وكان يبقى حيث لا حاجة به إلى البقاء بعد افتضاح الأمر وانطلاق صاحبته، لأنه لا يخشى العاقبة إذا أدركه المتعقبون. إذ كان أهله أعز من أهل بثينة، وكان طالبوه يضعفون عن حرب قبيلته ولا يقدرون على الدية إن رضى بها المطالبون بثأره، وهو نفسه قد ذكر ذلك فى بعض قصائده:

فليت رجالاً فيك قد نـذروا دمـــى
وهمُّوا بقتلى يـــا بثينُ لقونـــى
إذا ما رأونى طالعًا مـــن ثنيـــة
يقولون من هذا وقـــد عرفونـــى
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبـــا
ولو ظفروا بـــى خاليًا قتلونـــى
وكيف ولا توفى دماؤهـــم دمـى
ولا ما لهم ذو ندهة[1] فيدونـــــى

فهـــو قد كان فى حاجة إلى الاقتحـــام، ولكنه كان اقتحامًا ســـهلا عليه موافقًا لحاله وحال بثينة وأهلها. فاقتحم ما أمن وسلم، وما كان الخطر من بثينة وأهل بثينة، فلما تجاوز ذلك إلى الخطر من مطاردة الســـلطان وإهدار بأمر الوالى الذى يقدر عليه وعلى قبيلته رجع إلى الأناة وهرب إلى اليمن كما قيل.

وليس يطلب من جميل ولا من عاشـــق فى موضعه أن يكافح السلطان بشجاعته وينهض للدولة ببأسه، فمن الجائز مع هذا أن يكون شـــجاعًا وأن يترك دياره إلـــى اليمن إذا لم يكن له بد

(١) الندهة: الكثرة من الماشية.

من زيارة بثينة فيقتل، أو من معالجة السلو وهو قريب منها فلا يطيق.

إلا أنه لم تكن به حاجة إلى أكثر من الشجاعة التمثيلية فى دوره الحقيقى وفى روايته الواقعة، وهذه الشجاعة التمثيلية كافية لاصطباغ شعره بصبغة الفحولة التى تظهر فيه ولا تظهر فى شعر ابن أبى ربيعة.

أما إذا أعرضنا عن البحث فى شجاعته لبيان هذا الفارق بينه وبين المتغزلين بالنساء عامة، واعتمدنا أن نعرفها لنعرفه على حقيقته ونخلص إلى ناحية من نفسه قد تعين على فهمه وفهم عشقه وشعره، فالذى يلوح لنا أنه كان شجاعًا بين قومه ككل بدوى يشجع فى حمى الجماعة وفى ذمار القبيلة. فإذا حاربوا حارب، وإذا اجترأ فإنما يجترئ بقلوب المئات والألوف من ورائه، ولكنه لا يخلو من رقة تقعد به عن النضال العنيف والمعارك الدامية، وفى بعض قوله ما يدل على ذلك حيث يقول:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشةٌ
وكل قتيل عندهن شهيد

أو حيث يقول:

يقولون صبٌّ بالغوانـــى موكـــل
وهل ذاك من فعل الرجال بديـــع
وقالوا رعيت اللهو والمال ضائـــع
فكالناس فيهم صالـــح ومضيـــع

فلا هــو للجهاد فى غزوة ولا هو للجهــاد فى طلب ثروة، وليس كذلك الرجال الأقوياء الذين يحبون فلا يشــغلهم حبهم عن الجهــاد حيث تنفتــح أمامهم أبواب الجهــاد، بل يكون حبهم مثيرًا للعزيمة فيما طبعوا على اعتزامه من طلب المجد أو طلــب العلو على الأقران بالمال والجاه، ويبعد جدًا أن يملك الهيام على أحد من هؤلاء عقله ووقته وهموم عيشه حتى يفرغ له ويعى بأمره، ويرضى بالضياع كما رضى جميل.

وفى بعــض أوصافه ما ينــم على هذه الرقــة الضعيفة فيه كما تنم عليها أخباره ودلالات شــعره. فــكان له مظهر يروع الناظــر، ولكنه كان عرضة للنوبات التــى تعتريه فجأة، وقد تــدل على مرض فــى القلب والأعصاب، فذكــر بعض أصحابه

أنه كان جالسًا معه يحدثه «إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافرًا مقشعر الشعر متغير اللون» حتى أنكره صاحبه.

فهذه حالة غير سليمة، ولعله مات بعلة من عللها قبل أن يمعن فى الشيخوخة، فقد علمنا من شعره أنه عاش حتى شاب ولا تزال بثينة فى سن العشق والجمال، ثم مات وهى كذلك لا تزال فتية. فكانت وفاته ولا ريب فى كهولة دون الشيخوخة الفانية، وكانت لعلة من علل الضعف التى لا تدل على بنيان وثيق، وإن كان هذا لم يمنعه أن يجد فى حب بثينة أقوى الجد فى هذا المقام.